

سمير قصير... صناعة الكلمة

الخميس، ١٦ ديسمبر ٢٠١٠

فهد بن سليمان الشقيران*

مررتُ قبل أيام بجوار تمثال الكاتب والصحافي سмир قصير، الذي صممه الفنان الفرنسي لوي ديربري في وسط بيروت. تأملتُ سرّ الكتابة وخطورة القلم، وكيف أن هذا الصحافي اللاذع كان يشقّ بقلمه وبزاويته قيراً وموتاً مدوياً. تجذبنا الشخصيات الجريئة في كتاباتها، التي استطاعت أن تعبّر عن أفكارها من دون مواربة، لأنها تحقق وتقوم بما نعجز عنه، ذلك أن معادلة الكتابة لدينا، معاصر العرب، منذ فجر التاريخ تمرّ بتناقضات كثيرة، وتخضع لحسابات متعددة، ومن النادر أن نعثر في الكتابات العربية على كاتب يمارس كل أدواره النقدية من دون خضوع أو استسلام، ولعل هذا ما يفسّر الاحترام لكتب الراحل سмир قصير.

حينما رجعتُ إلى كتاباته السياسية التي وقّرتها «دار النهار» للقراء عبر طبعها في كتيبات أحدها تحت عنوان «عسكر على مين» والآخر تحت عنوان «ديموقراطية سورية واستقلال لبنان»، بهرثني حروفه. ففي الكتابين يحاول جهده أن يرصد كل العوامل التي يمكن أن تساعد على النقد السياسي والاجتماعي. فهو مهموم الى حد الهوس بتاريخ بيروت والتي خصص لها كتاباً من ألف صفحة صار الكتاب من أهم المؤلفات التي تتحدث عن تاريخ بيروت.

تحت عنوان «عصابات بيروت»، كتب سмир قصير تحليلاً ذكياً عن سرّ توافد اللبنانيين على حضور فيلم «عصابات نيويورك» والذي غصت به صالات السينما، وهو فيلم يحمل أفكاراً حادة وشديدة الخطورة لأنه يشرح أسرار التجاوب التي يمكن أن تلعبها الطبيعة البشرية مع دور دانيال داي لويس الذي قام بدور «الجزار». في مقالته تلك عن عصابات بيروت يقول: «ثمة أكثر من سبب لكي يتوافد اللبنانيون لحضور عصابات نيويورك. الدرس الكبير الذي يستخلصه البطل من الفيلم هو أن صراعات العصابات التي تلتهى بها مع رفاقه الإيرلنديين وخصومهم «السكان الأصليين» في هذا الحي سيلفها النسيان فيما التحولات الكبرى جرت وتجري وستظل تجري خارج حلبة حروبهم الصغيرة!» (ص ١٠٥)

ينتقد بعض المسؤولين في لبنان ويقترح عليهم بعض البرامج التي يمكن أن يقضوا بها جلسات سمرهم، فيكتب: «قد يكون مفيداً، مثلاً، تزويد مقر مجلس الوزراء بشاشة كبيرة، واستئجار آلة للعرض السينمائي على أن يراعى في البرمجة مبدأ التنقيب السياسي الذاتي، إلى جانب المتعة الفنية، عليهم يدركون عند ذلك بعض ما هم عليه.»

يقترح تخصيص ثلاث جلسات لثلاثية «العراة»، وجلسة لفيلم «قيصر الصغير» (أبيض وأسود، إخراج مرفين ليروي) ويجدد رهانه على ربط فهم اضطرابات الشام بفهم الطبيعة المافايوية التي تحكم التحرك السياسي والأمني، يعلق على جدوى مشاهدة فيلم «قيصر الصغير» بقوله: «نجد فيه هذه الجملة الجوهرية، أريد القانون في يدي.»

لقد أسس سмир قصير عبر كتاباته نافذة من «اليسار المركّب» الذي يفتت جمود اليسار القديم، ليأتي بفكره الحديث وثقافته الواسعة التي استمدتها من حفر فكري وكتابي بين فرنسا وبيروت ليجد نفسه أمام مخزون رؤى صحافية ولغوية وفكرية وسياسية عصية على النضوب. جسد بكتابه الدقيقة أسطورة «خطر الكلمة» باغتياله ليجدد سмир للكلمة طوقها، ليثبت بُعداً أزلياً للكلمة التي يموت بسببها صانعها وهي تحيا بموته.

ومع انتقاداته الحادة للسياسيين في لبنان، لم يأنف من التعاطف معهم: فهو ينتقد اللبنانيين حباً بلبنان، ولا أدل على هذا من انتقاداته الحادة لرئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، غير أن تلك الانتقادات لم تمنعها

من إيجاد صداقة عميقة. إنها التركيبة الكتابية المعقّدة حينما يتم الفصل بين الكتابة بوصفها «حالة» وبين الصداقة بوصفها «العقد» الروحي بين كائن وآخر يقفان مع بعضهما بعضاً وقت الشدة وينتقدان بعضهما بعضاً ساعة الخطأ. تجربة سمير قصير تعلم الناس أن صانع الكلمة قد يموت ولكن بعدها «تحيا كلماته القاتلة.»

*كاتب سعودي